مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 20، العدد 79 (صيف 2009)، ص 96

في الذاكرة
طلال سلمان*
شفيق الحوت فقيد القطرين

التقيت شفيق الحوت، أول مرة، في خريف سنة 1957، حين عملت في مجلة "الحوادث" لصاحبها الصحافي الراحل سليم اللوزي، وكنت مبتدئاً، وكان شفيق الحوت سكرتيراً للتحرير، وقد عاد إلى مجلة "الحوادث" بعد مغامرة لم تمتد طويلاً في الكويت.

لفتني بداية بحماسته المتدفقة التي كثيراً ما اصطدمت بخبرات سليم اللوزي الآتي من تجربة عريضة في العمل الصحافي في مصر، وفي مدرستين متكاملتين: الأولى مجلة "روز اليوسف" حيث الصدارة للمقالة والتحليل والتعليق السياسي معززاً بالرسم الكاريكاتوري بخطوطه الأفصح من الكلام، والثانية مجلة "المصور" التي تصدرها دار الهلال، والتي تحتل معظم مساحتها الصورة التي تقول ما يغني الكلام ويمنحه الدلالات المقصود إبرازها.

كان يريد "الحوادث" منشوراً ثورياً... وكان لحكمة منح الصلح الذي كان ضيفاً دائماً على تلك المجلة الوليدة، شأن عظيم الأثر في تهدئة شفيق الحوت، وفي إقناعه بأن الكلمة المعبرة بدقة عن واقع الحال أكثر فائدة لإيصال الفكرة المشعة حماسة، وأن تلك المعبرة عن ضمير الناس أفعل من الخطاب الذي ربما يثير الحماسة، لكن ذلك قد يكون على حساب المضمون.

كنا نعيش في لبنان أزمة سياسية خطرة نتيجة انتخابات نيابية أجراها الرئيس الراحل كميل شمعون في نهاية عهده، وفق قانون ابتدعه بتقسيمات عجيبة للدوائر تحقق له مبتغاه بإسقاط معظم خصومه السياسيين بدءاً بصائب سلام في بيروت، مروراً بكمال جنبلاط في جبل لبنان، وصولاً إلى صبري حمادة في البقاع، وانتهاء بحميد فرنجية في الشمال. أمّا المنطقة من حولنا فكانت تعيش الهزات الارتدادية لفشل العدوان الثلاثي على مصر، وتقدّم جمال عبد الناصر كقائد مفعم بالحيوية، صادق النبرة، ذي وعي منفتح على فكرة العروبة خاصة، وقد وقفت الأمة العربية تدعمه وتعزز موقفه في مواجهة العدوان فاتحة له قلبها كزعيم لنضالها كانت تنتظره منذ زمن طويل.

تحولت كتابات شفيق الحوت في "الحوادث" في تلك الفترة إلى ما يشبه "المنشور الثوري"، وإن ظل عقل منح الصلح يتدخل لتقريب المسافة بين الأفكار المنادية بالتغيير الجذري الشامل وبين فهم المعادلات السياسية المعقدة التي تحكم أوضاع "الدول العربية" وقياداتها متعددة الاتجاهات والارتباطات والميول.

هنا استعاد شفيق الحوت، الخطيب المفوه على مدرجات وأندية الجامعة الأميركية، حيث كان طالباً، دور الداعية، مستخدماً لغة التحريض على الأنظمة المتخاذلة وسائر الهاربين من ميدان المعركة.

في 22 شباط/فبراير 1958 نشأت دولة الوحدة (الجمهورية العربية المتحدة) من اندماج مصر وسورية، مستولدة مداً جماهيرياً عارماً، هيّأ لجمال عبد الناصر أن يظهر في دور القائد التاريخي المؤهل لاستعادة أمجاد العروبة. وكان المد الثوري عظيم الاندفاع... ولقد أحدث تأثيراً عميقاً في الأوضاع السياسية في لبنان، فاشتد الضغط على رئيس الجمهورية كميل شمعون الذي اتهمه خصومه بأنه يعمل للتجديد، وتفجرت "الثورة"، وكانت شرارتها اغتيال الصحافي الشعبي المتميز نسيب المتني. وسارع الرئيس شمعون إلى طلب التدخل الأميركي، وأرسل كتاباً بطلبه هذا إلى الإدارة الأميركية في واشنطن.

ونتيجة التضييق على سليم اللوزي فضّل الانتقال إلى دمشق، تاركاً "الحوادث" في عهدة شفيق الحوت ومعه قلة قليلة من الزملاء كنتُ الأكثر مواظبة واستعداداً للمغامرة بين المكتب خلف قصر هنري فرعون والمطبعة، دار الغد، في الخندق الغميق، ولتحمّل أعباء عملية الإنتاج، مروراً على الحواجز العسكرية في ليالي الخوف ومنع التجول.

كان شفيق الحوت يسكن في بيت هو من أوقاف بعض جدوده في الشارع المسمى باسم واحد منهم.. وليس بين البيت ومكاتب المجلة إلاّ طريق ضيق. وكان يقصد يومياً منزل الرئيس صائب سلام الذي بات أشبه بمركز قيادة الثورة، فيلتقيه، ويقابل عنده العديد من السياسيين، ثم يعود ليجد "البيك" منح الصلح في انتظاره، فتتم مناقشة مستفيضة للأوضاع، أحضرها مستمعاً، وبعد ذلك ينصرف كلٌّ إلى كتابة ما توفر لديه، أو ما ينبغي له قوله في العدد الجديد من تلك المجلة التي باتت ناطقاً باسم الثورة في لبنان، وباسم العروبة في كل أرض.

كان شفيق الحوت يؤمن بأن الوحدة العربية هي الطريق إلى فلسطين. وكان، كمعظم جيله، يرى في جمال عبد الناصر البطل العربي الذي طال انتظاره، والذي سيكون في وسعه تحقيق الأحلام السنية، معززاً بذلك الالتفاف الجماهيري الأسطوري من حوله، والذي كانت بعض صوره تتخطى أي تصور (منها، على سبيل المثال، حمل السيارة التي كانت تقله عند وصوله إلى حماة، فضلاً عن المشاهد غير المسبوقة لاستقباله في مختلف المدن السورية... والتي كثيراً ما زحفت إليها جماهير من المناطق اللبنانية تجاوزت أي اعتبار محلي).

*****

بعد عامين، تركت عملي في مجلة "الحوادث"، لكنني بقيت صديقاً لشفيق الحوت الذي كان احتل مكانته ككاتب قومي – تقدمي مميز، وكانت مصلحة الاستعلامات في القاهرة جمعت كتاباته في كتيّب هو أول نتاج له.

تركت "الحوادث"، لكن الصداقة مع شفيق الحوت استمرت تترسخ، وقد اكتسبت بعدها السياسي الكامل حين تم إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة أحمد الشقيري. وكان شفيق الحوت يكنّ تقديراً خاصاً للشقيري، وكان يتابع حركته باهتمام، ويهتم بأسلوبه في الكتابة والخطابة، وأفترض أنه ظل قريباً منه حتى بعد إخراجه من قيادة المنظمة لفسح المجال أمام "قيادة الثورة الفلسطينية" ممثلة بياسر عرفات كي تتولاها.

*****

خلال هذه الفترة، عمد شفيق الحوت مع بعض رفاق عمره ونضاله إلى تأسيس جبهة سياسية تنادي بدورها بالكفاح المسلح، وقد حملت اسم "جبهة التحرير الفلسطينية – طريق العودة" (ج.ت.ف.). وكان مع شفيق في هذه الجبهة أحمد السعدي، ونقولا البدر، والأديبة سميرة عزام، وأحمد صدقي الدجاني، وآخرون...

ولم يكن القصد مجرد التميز عن "فتح" التي كان لشفيق الحوت وكثير غيره العديد من الاعتراضات على بعض ميول قيادتها التي اتهموها باليمينية والمساومة، بل كانت محاولة لفتح الأفق أمام عمل أكثر عروبة وأكثر تقدمية من الحركة التي تصدت لقيادة العمل الثوري الفلسطيني، ومنظمة التحرير بعد ذلك. ولعل بين المحطات المهمة التي تؤكد تلك الطبيعة الخاصة للعلاقة بين الشقيري والحوت، الدور البارز الذي لعبه "أبو هادر" في صياغة لاءات الخرطوم المشهورة: لا صلح، لا تفاوض، لا اعتراف.. والتي كانت تعلن رفض الهزيمة، وضرورة العودة إلى ميدان القتال، معززة بذلك الاستقبال الأسطوري الذي وفرته الخرطوم للقائد "المهزوم" جمال عبد الناصر، والذي أمدّه – كما أمدّ جميع المناضلين – بمزيد من قوة الإرادة والتصميم على النصر بقوة هذه الجماهير التي استقبلته وحده، تاركة الملوك يصلون إلى المؤتمر مستوحدين.

*****

كان شفيق الحوت مزيجاً من الفلسطيني واللبناني بهوية القومي العربي – التقدمي. ولعل هذا المزيج كان يدفعه – في أعوام الزهو الفلسطيني، وتمركز "الثوار" في لبنان – إلى تحذير قيادة الثورة والمنظمة من تحميل لبنان فوق ما يطيق. وأشهد كما يشهد غيري، أن شفيق الحوت كثيراً ما نبه القيادة الفلسطينية إلى أن عبثهم بثوابت النظام الطوائفي الخاص القائم في لبنان ربما يجردهم من صفة "الثوار"، ويحولهم إلى "مهيمنين"، بل إلى مغتصبي سلطة في بلد يصعب على طرف واحد من أبنائه أن يحكمه... ثم إن صيغة لبنان تحظى بحماية دولية استثنائية لا يمكن إسقاطها أو خرقها، وأي إخلال بها سيؤدي إلى حرب أهلية ستكون الثورة الفلسطينية ولبنان، ثم سورية، ضحاياها، وإن الاشتباك في لبنان سيشوه صورة الثورة الفلسطينية، وسيضعفها أمام العدو الإسرائيلي.

وكان شفيق الحوت يستشهد بحادثة كان أدى فيها دوراً محورياً، حين اقترح على صديقه منح الصلح، في بداية عهد الرئيس الراحل فؤاد شهاب، ومع اشتداد الحاجة إلى تعزيز الإذاعة اللبنانية بالقدرات الفنية التي تجعلها مسموعة ومؤثرة، أن يستقدم إليها بعض أبرز الخبرات الإذاعية من الفلسطينيين الذين كانوا استقالوا من محطة "الشرق الأدنى" البريطانية، في أعقاب العدوان الثلاثي على مصر.

وتمت الموافقة على الاقتراح، وذهب شفيق الحوت إلى الإذاعة بسيارات الجيش اللبناني وبصحبته، إضافة إلى نبيل خوري الذي كان يعمل في "صوت أميركا"، كل من: صبري الشريف؛ غانم الدجاني؛ ناهدة فضلي الدجاني؛ صبحي أبو لغد؛ عبد المجيد أبو لبن... وقد استولد هؤلاء الخبراء المتميزون إذاعة سرعان ما احتلت مكانتها بين الإذاعات العربية المؤثرة، فحفظ اللبنانيون – حكماً وجمهوراً – الجميل "للفلسطينيين" الذين جاءوا إليهم فأعطوهم أكثر كثيراً مما أخذوا منهم.

كان شفيق الحوت يضرب هذا المثل وهو يدعو القيادة الفلسطينية إلى أن تعطي لبنان فتأخذ منه كثيراً، أمّا إذا صارت هي سلطة فيه فستتوحد فئاته جميعاً في الاعتراض على هذا التسلط المسلح، وسيخسر لبنان كثيراً، وتخسر فلسطين أكثر.

*****

عندما انتشر السلاح الفلسطيني في مختلف أنحاء لبنان، مقدِّماً منظمة التحرير الفلسطينية أو الثورة "كسلطة بديلة"، انطوى شفيق الحوت على ذاته يتجرع غصات الألم، متوقعاً النتيجة الكارثية لتجربة "الثورة الفلسطينية" في بيت من الزجاج كان لا بد من أن يتهدم عليها ملحقاً بها وبشعبه جراحاً بليغة يصعب نسيانها كما تصعب مداواتها.

اعتكف "أبو هادر"، الذي كان يشغل – إضافة إلى موقعه في اللجنة التنفيذية للمنظمة – منصبه كمدير لمكتب منظمة التحرير في لبنان، في بيته، منصرفاً إلى الكتابة، وقد أمدته التجربة بمزيد من نفاذ الرؤية، فضلاً عن مرارة الخوف على مصير هذه الحقبة من النضال الوطني الفلسطيني.

ما عاد في إمكان شفيق الحوت الموافقة على السلوك السياسي لقيادة منظمة التحرير، بعد خروجها من لبنان، فانتقل إلى المعارضة الهادئة، ثم الصاخبة مع تورط القيادة في توقيع اتفاق أوسلو، وصارت الكتابة ملجأه، لكن المرارة كانت تتكاثف داخل صدره، وتثقل على جسده... ومع كل انحراف إضافي أو تورط في تنازل يزيد في تجبر العدو، كان شفيق الحوت يذوي داخل مرارته حتى قضى باليأس من هذه القيادة التي اعتبر أنها أهدرت حقبة من أعظم حقبات النضال الفلسطيني. وربما لهذا يمكن القول إن شفيق الحوت احتجب احتجاجاً ورفضاً للنهج الذي دمر ثوابته الأثيرة إلى نفسه: لا صلح، لا تفاوض، لا اعتراف.

رحم الله هذا المناضل الذي عاش لفلسطين من دون أن ينسى لبنان، فكان، بحق، فقيد البلدين الشقيقين. ■

(*) رئيس تحرير جريدة "السفير" اللبنانية وناشرها.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx